مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 08 العدد: 01 جانفي (2024) ص 105/ 121

الأنظمة التّفاعلية في الحديث النبوي الشّريف من منظور تداولي

Interactive systems in the hadith of the Prophet from a pragmatic perspective

نميسي أمال *
جامعة باجي مختار. عنابة، (الجزائر)
samel91@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 12. /10 /2022
تاريخ القبول: 17 /01 /2024

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الخطاب
- ✓ الإنجاز
- ✓ الحِجاج

الملخص:

لطالما كان الحديث النّبوي الشّريف وسيلةً للدّعوة الإسلامية، ولذلك ليس غريبًا أن نعود إلى المجتمع ليمدَّنا بتفسيرات لظواهر فنية بخاصة فن الخطاب الدّعوي الذي يعتمد اللُّغة أداة تعبيرٍ، ونظرا للأهمية التي اكتستها التّداولية في اقتحام النّص التّواصلي تولّدت لديَّ رغبة في مقاربة نص تراثي أصيل بمنهج لغوي معاصر؛ لأن التّقدم في تحليل الخطاب لم يكن للخطاب النبوي نصيب منه، فبقي محصورا في الدراسات الايديولجية التي تراكمت عبر التاريخ، وتمثلت في شروحات بسيطة وعادية تفرقت هنا وهناك بين كتب الفقه والتاريخ.

وقد جاء هذا البحث كمحاولة للكشف عن خصائص الخطاب النبوي في علاقته بالأنظمة التّفاعلية من خلال المقاربة اللِّسانية التّداولية القائمة على تناول دلالة الخطاب، ورصد حركة الأدلة اللُّغوية في اتصالها بظروف الاستعمال، وسياقات التّلقي الَّتي تحفُّ هذا الخطاب.

Article info

Received 12/ 10/ 2022
Accepted 17/ 01/ 2024

Abstract :

The Noble Prophetic hadith has always been a means of Islamic advocacy, and therefore it is not surprising that we return to society to provide us with explanations for artistic phenomena, especially the art of advocacy

* - المؤلف المرسل

discourse that relies on language as a tool of expression. ; Because the progress in the analysis of discourse did not have a share in the prophetic discourse, so it remained confined to the ideological studies that had accumulated throughout history, and were represented in simple and ordinary explanations that dispersed here and there between the books of jurisprudence and history.

This research came as an attempt to reveal the characteristics of the prophetic discourse in its relation to the influence, directive and persuasive systems through the deliberative approach based on addressing the semantics of the discourse, and monitoring the movement of linguistic evidence in connection with the conditions of use, and the reception contexts that surround this discourse.

Keywords:
- ✓ *: discourse*
- ✓ *achievement,*
- ✓ *arguments*

1. مقدمة:

إنّ الحديث النّبوي الشّريف واحدٌ من الخطابات البشرية، إلاّ أنه صادرٌ من من محمد صلى الله عليه وسلم (الّذي قال فيه سبحانه وتعالى (**ومَا ينطِقُ عن الهَوَى إنْ هُو إلاّ وحيٌ يُوحَى**) (1) وهو القائل عن نفسه (**أوتيتُ جوامِعَ الكَلم**) (2)، وهذه خاصيّة من أبرز دلائل النُّبوة.

ومن الدَّارسين المحدثين من يستخدم مصطلح (الخطاب) للدّلالة على جامع كلمه صلى الله عليه وسلم، اعتمادًا على أنَّ الخطاب هو كلُّ كلامٍ منطوق أو مكتوب، يفترض فيه التّأثير في السّامع أو القارئ مع الأخذ بعين الاعتبار الملابسات الّتي صيغ فيها الخطاب ، و هذه الخصائص تنطبق على أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم.

والخطاب في الميدان التَّداولي هو وضع اللّغة موضع الفعل؛ أي هو قول يفترض متكلمًا ومخاطبًا مع توفير مقصد التأثير بوجه من الوجوه، وعليه لم يعد يُدرس باعتباره نصًا لغويًّا مستقلاً بذاته منفصلا عن سياقه، بل إنّ الخطاب مدرك كنصٍّ داخل سِياقه.

ولكوني أحتاج إلى تفسير نصوص الحديث النّبوي، والوقوف عما تحويه من قيّم تغييرية أكثر من وصفها، اعتمدت على المنهج التّداولي؛ لأنَّه استراتيجيه هامة في تحليل الخطاب التّواصلي لجمعه بين البنائية الوصفية والسِّياقية والوظيفية وغيرها من الحقول الّتي تلتقي مع الدرس التّداولي، في الوقت الّذي باتت فيه الحاجة إلى تفسير الظّواهر أكثر من وصفها، والخطاب النّبوي يحوي بعض الحدود اللُّغوية الّتي تتطلب معلومات سياقية أثناء التّأويل، وبهذا يمكن تجاوز علم الوضع اللُّغوي إلى مباحث علم الاستعمال الفعلي، وهو صميم البحث التّداولي، والتّداولية تهدف إلى "بيان كيفية نهوض الأدلة اللُّغوية في التَّعبير عن المعاني، ومدى تأثيرها على المتلقي من خلال ممارسة فعل الإثارة والإفادة والإقناع"(3)، والخطاب النَّبوي فن أدبي قوامه التَّأثير في المتلقي وتعديل سلوكه تجاه ما يتلقاه، وقد وجدت في كلام محمد صلى الله عليه وسلم ما يناسب مباحث الدّرس التّداولي كالتّوجيه والإقناع والتّأثير...إلخ.

وقد أثار هذا الأمر لديّ مجموعة من الافتراضات أفضت إلى توليد هذه الأسئلة:

- ماذا صنع الرّسول صلى الله عليه وسلم عندما تكلّم؟ وما جدوى دراسة الحديث النّبوي الشّريف في ضوء منهج نشأ في مناخٍ فلسفيٍّ عنيّ بتحليل اللُّغة العادية؟
- وماهي الاستراتيجيات والأنظمة التّفاعلية التي قام عليها هذا الخطاب في سياقاته؟
- ماهي خصائص الخطاب النّبوي في علاقته بالبِنية اللُّغوية والدّلالية والحِجاجية؟
- ما مدى مساهمة الخطاب النّبوي في التّأثير على مجتمع عرف أصحابه بالإصرار على الرأي الشّخصي وإتباع ما ألفه الأباء والأجداد؟

وقد وقع اختيار كتاب (صحيح البخاري) مدوّنة للبحث، لكون الإمام "محمد بن إسماعيل البخاري" راعى في نقله لأحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم كل ملابسات المقام التي حرص أصحاب الرّسول رضي الله عنهم على ذكرها بكل تفاصيلها، ممّا يجعل كل أحاديثه الشّريفة منقولة داخل سياقاتها الشّفوية، وهذا ما يجعلها أقرب للحديث اليومي؛ لأنها تمثِّل أداة تواصل بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو ما يسهّل دراستها وفق المنهج التّداولي.

ومن الدِّراسات السّابقة الَّتي عرضت للموضوع، رسالة في الأدب العربي، بعنوان: (أفعال الكلام في أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم - دراسة تداولية) للباحثة "وناسة كرازي"، ولكن تبقي مضامين هذه الدِّراسة محصورة في جانب واحدٍ التّداولية، بينما يسعى هذا البحث إلى الكشف عن مدى استجابة الحديث النّبوي الشّريف لتطبيق آليات التّداولية، ورصد الأبعاد التّداولية التي حقّقها الرّسول صلى الله عليه وسلم من خلال كلامه ، ويصبّ هذا الهدف في هدف أشمل وهو الوقوف على الدّلالة العامة لمختلف أجناس الخطابات اليومية والأدبية .

2. مفهوم الخطاب النّبوي:

إنّ أشهر من تصدَّى لتعريف مصطلح (خطاب) (4) هو"علي بن محمد الآمدي" بقوله: "الخطاب هو اللَّفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"(5)، أي أنّ خواص الخطاب تتمثّل في: **المضمون**، والذي يتجسَّد في اللُّغة المشتركة بين المتخاطِبين، و**المقصد** الّذي يتجلى في الإفهام، **وضعية التلقي**، وتتمثَّل في تهيُّؤ المتلقي لتلقِّي الخطاب.

وأضاف "عبد القاهر الجرجـاني" خاصيّة (التَّرابط العضوي) حين شبَّه واضع الخِطاب "بمن يأخذ قطعًا من الذَّهب فيذيب بعضها في بعض حتّى تصير قطعةً واحدة، فيربط بين أجزاء الخِطاب ربطًا علائقيًا، بحيث يصبح مجمـــوع الكلام كلامًا واحدًا". (6)

ينبّه "عبد القاهر الجرجاني" في هذا التَّعريف على التَّرابط العضوي بين الوحدات اللُّغوية داخل الخطاب بالعبارة (فيربط بين أجزاء الخطاب ربطًا علائقيًا)؛ حيث التَّغيُّر الحادث في أي وحدة لغوية يصاحبه تغيُّرٌ في سائر الوحدات اللغويَّة.

ويشترط العرب المحدثون توفُّر شروط عامة ومقاميَّة تبرز إنتاج الخطاب، بقولهم هو"كلُّ ملفوظ ومكتوب يشكِّل وحدة تواصلية قائمة الذَّات، يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الدّاخلية وظروفه المقامية (بالمعنى الواسع) " (7).

يشمل الخِّطاب- حسب هذه التَّعريفات - الملفوظ والمكتوب، كما يشمل الجملة ويتجاوزها، وهو ذو بعد تواصلي؛ حيث يربط البُّنية اللُّغوية (الأصوات والوحدات المعجمية والعلاقات التركيبية) بالظُّروف المقاميّة لتحقِّيق التَّواصل بين المتخاطِبين.

واجتهد الكثير من البّاحثين الغّربيين في تعريف الخطاب، وكان من بينهم "ميشيل فوكو Michel Foucault" الذي عرَّف الخطاب على أنَّه"مجموعة من الملفوظات بوصفها تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أوصورة قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، بل هو عبارة عن عدد الملفوظات التي نستطيع تحديد شروط وجودها. "(8).

يعني الخطاب عند "ميشيل فوكو" التّجسيد؛ ويقصد به النُّصوص المنظِّمة للمعرفة والممارسة في تمفصلها مع الزّمان والمكان، وبالتَّالي تكشف خطابات معيَّنة عن وجود إدراك محدَّد، يشير إلى وجود منظومة من العلاقات أكثر تعقيدًا.

وعليه؛ فإن الخِّطاب هو عبارة عن رسالة يقوم المرسِل بتوجيهها إلى المستقبل أو المتلقي بهدف تقديم أمر ما أو إقناعه بفكرة ما، سواء كانت لغتها منطوقة، ويكون ذلك في حال الحوار، أو مكتوبة، وتكون في حال المراسلة.

ويأتي الخطاب النبوي مرادفا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الخاصية التّعددية في هذا الكلام، والّتي لا تتحقّق إلاّ بوجود طرفي التّواصل، فيؤدِّي سماع الكلام الى انتقال معانيه إلى ذهن السَّامع، ومن ثم حدوث الفائدة، وقد آثرت استعمال مصطلح (حديث)؛ لأن الرّسول صلى الله عليه وسلم سمّى بنفسه قوله حديثًا، وذلك حين أتاه "أبو هريرةّ" يسأله عن أسعد النّاس يوم القيامة فأجابه الرّسول صلى الله عليه وسلم" لقد ظننْت أن لاَ يسْألَني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَلَ مِنك لما رأيتُ من حِرصك على الحديثِ"(9)، لهذا السّبب آثرتُ استخدام اسم (الحديث) دون غيره من المصطلحات الّتي يمكن عدها مرادفة أو مجاورة دلاليا للحديث النّبوي الشّريف .

3 – الأنظمة التّفاعلية في الخطاب النّبوي

لا تبدو المقاربة بين التَّداوليّة والخطاب النّبوي يسيرة؛ إذ التّداولية فلسفة أصلاً، والخطاب النبوي فنٌ لغوي، ومع ذلك يمكن أن نسجِّل عددًا من مواقع التَّماس؛ ممّا يسمح بتحليل أحاديث الرسول (ص) وفق مقاربة تداوليّة، وذلك على النّحو التّالي:

3-1- الأنظمة التَّواصليّة: لا يقوم التّواصل الفني دون أن يوجَّه إلى متلقٍ ما أو قارئ ما، وهو ليس بعيدًا عن غرض الاتصال" (10)؛ ومن هنا جاز لنا القول بأن الخطاب لا يقوم على مبدأ التّهميش والإقصاء بقدر ما يروم تبادل علاقات الوِّد بين أطرافه.

وقد أدرك محمد صلى الله عليه وسلم حقيقة التَّواصل في اللّغة حين جعل أقواله تتَّصل بالإدراك أكثر من اتصالها بالإبداع الفَّني، وكأنَّ الصُّورة الفنية في خطاباته نسخة ممَّا هو واقعٌ في العالم الخارجي، ولا يكون بهذه القيمة سوى التَّعبير الَّذي يمتاز بالإبانة والبلاغة، ولكن رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام يضيف عاملاً يتوِّج هذه الصورة الفنية، وهو اللّذة الَّتي تحصل للمتذوِّق؛ لأنَّها تدخل على النُّفوس انشراحًا وصفاءً.

والتَّداولية "تساعد محلِّلي الخطاب في الفّهم الدقيق لمقصدية التواصل، وهي تستعين في مقاربتها بمفاهيم ثلاثة تعدّ من الأهمية بمكـان، أولّها (مفهوم الفعل)" (11)، وبهذا تصبح جامعًا بين أقطاب العملية التَّواصلية؛ لأنّها أعادت

المبدع للواجهة بعد تركيزها على قصديته، ومنحت النَّص فرصة إظهار هذا القّصد حين جعلت فعل التلفّظ يفضي إلى إنجازٍ ما، ويحتاج هذا الإنجاز إلى طاقة تأويلية لفهمه وإدراكه وعليه يرتكز مفهوم الإيصال في الخطاب على فعل التَّأويل الَّذي يقوم به المتلقي؛ وبذلك يتمُّ الاتصال.

وعلى هذا تكتسب النّصوص محلّ الدِّراسة جملة من المواصفات ، لعلّ أهمها:

1- المخاطِب؛ ويتمثل في شخص الرّسول عليه الصلاة والسلام، إذ هو منشأ الكلام ومصدره.

2- المخاطَب: باعتبار أنّ الأحاديث الشريفة تتوجّه إلى شخص معيَّن، وانتظار ردّ فعله.

3- الرِّسالة: وتحضر من خلال الأحاديث النّبوية الشّريفة كأبنية لغوية ذات مغزى.

وبالتّالي تتمـــاس التَّداولية مع خطابات النّبي الكريم في إحداث التَّـواصل أو الاعتماد على مفهومه، ما دام كلّ إنتاج لغوي يعني تواصلاً بين مبدع ومتلقٍ، والتّواصل يبدأ بنقل رسالة من نوعٍ خاص ذات محتوى متَّصل بالقِيم.

2-3- الأنظمة التّأثيرية: من أجل أن يحقّق الجمهور التَّواصل مع نصٍ ما، لابد من معرفة بعض الخبايا اللُّغوية التي تشكِّل فخًا يحول عدم إدراكه دون الفهم الجيّد، ومن ثمَّ دون تحقيق التَّواصل، ومن بين الأنظمة التي تؤدي إلى التَّـأثير في المتلقي:

أ)-الـرَّمز والإيحاء: تكمن تداولية اللَّفظ الرَّمزي عمومًا، وفي الخطاب الدّعوي بشكل خاصٍ في كون الدّعاة يجعلون منه مشيرًا إلى المعنى الضِّمني، وذلك بالتَّركيب الإيحائي الكامل؛ ومن أمثلة توظيف الرموز ما جاء في قول الرّسول (ص) على لسان عبد الله رضي الله عنه حين قسَم النّبي (ص) قِسمة حُنينٍ، **"قال رجل من الأنصَارِ ما أرادَ بها وجهَ اللهِ، فأتيتُ النّبي فأخبرْتهُ، فتغيَّر وجهُهُ ثمّ قالَ: (رحْمةُ اللهِ على موسى، لقد أُوذيَّ بأكثر من هذَا فصَبرَ)"** (12)

استحضر الرّسول (ص) شّخصية القائد والنّبي العظيم (موسى بن عمران) كرمز للصّبر على الظّلم؛ حيث صبر عليه السّلام على أذى فرعون وقومه وكدعوةٍ ضمنيّة لانبعاث أمثولته من جديد في روح المسلمين،والامتثال به في الصّبر والقناعة.

ومن مظاهر استعمال الرّمز تخصيص الدّلالة اللّغوية، كما في قول الرّسول (ص)"**آيةُ الإيمانِ حبُّ الأنصَارِ وآيةُ النِّفاقِ بُغضُ الأنصَارِ**"(13) .

استحضر الرّسول صلى الله عليه وسلم لفظ (الأنصار) كرمز ديني دون تصريحٍ باسمهم ونسبهم على افتراض أنّ التَّعبير ينصرف بمعونة السِّياق الدِّيني إلى أهل يثرب من الأوس و الخزرج الّذين ناصروا رسول الله في الإسلام، وهذا لأن المخاطِب الكريم قرَّب بين أفكاره وما أُوثر عن الجماعة التي يخاطبها، لما لآثار السَّلف من قوّة إيحائية تتركها على نفوس الخلف؛ وبالتَّالي يكون كلامه واقعيًّا، وتتحقّق الإفادة من وراءه ولإكساب عمله الصّبغة الدّلالية الإيمانية بدعوة المتلقين ضمنيًا إلى الاقتداء بهم والسّير على خطاهم.

ومن أوجه توظيف الأنظمة اللّغوية المؤثرة إطلاق حكمٍ ما في شكل ميسَّر، والاعتماد على خاصية التَّبسيط لعملية التَّفكير، ومن أمثلة ذلك ما ورد في باب (الحياء من الإيمان) **"من أنّ رسولَ الله مرّ على رجلٍ من الأنصَار – وهو يعِظُ أخَاهُ في الحْياءِ، فقَالَ رَسُولُ الله (دَعْهُ، فإنَّ الحْياءَ مِنَ الإيمَانِ)"**(14)، وكذلك في قوله " **سِبابُ المسْلمِ فسُوقٌ، وقِتالهُ كُفْرٌ**"(15)

تحمل شعارات: (فإن الحياءَ من الإيمانِ) ،(سِبابُ المسْلمِ فسُوقٌ)، و(قِتالهُ كُفْرٌ) قوة كامنة تزرع قيمًا أخلاقيةً متنوعةً في نفوس المتلقين، وتدفعهم للاقتناع بضرورة التّحلي بمكارم الأخلاق أينما حلّوا وتعاملوا ليثقلوا بها ميزان حسناتهم يوم الآخرة.

وبمثل هذه الرُّموز اللُّغوية والشِّعارات المؤثرة يمارس الخطاب النّبوي سياسة التَّصريح، ومن خلالها أيضًا تمُارس سياسة التغييب، وفي الحالة الثانية يقدَّم الغرض الدّعوي "بأغلفة من البلاغة والمجاز في ضرب من الإلهاء على أمل أن يتوارى الوعي بحقيقة الأساليب، وشيئا فشيئًا تتحوَّل العبارة إلى رمز يأخذ موقعه ضمن خانات العرف الاجتماعي..." (16)، وكلما كان الغموض والإبهام في الخطاب، كلَّما كان الأديب محنَّكًا، مع المحافظة على بلاغة الخطاب، وعلى هذا لا يمكن نعت الحديث النبوي بالبساطة، وذلك لوجود الرُّموز الّتي تنمُّ عن صدق التَّجربة اللّغوية، وعمق الأحاسيس التي يعيشها نبي الله عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

ب- **القول المضمر (التَّأويل):** لا يكتفي الإنسان بظاهر الكلمات عند التَّعامل مع النّاس، ولكن يتساءل أحيانا عن مقصد هذه الكلمة أو تلك، و"مثل هذا المظهر في الخطاب يسميه علماء الدَّلالة بالأقوال المضمرة. "(17) ؛أي أنّ القول المضمر يشكِّل الصُّورة الثَّانية من متضمنات القول، ويرتبط بوضعية الخطاب، على عكس الافتراض السّابق الّذي يحدّد على أساس معطياته اللغوية.

ولا يمكن الكشف عن متضمّنات القول في الحديث النبوي إلاَّ بمعرفة القوانين التي تميّزه عن بقية الرسائل وتحرِّكها؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يلجأ في خطابه إلى الأقوال الصَّريحة، بل يسعى إلى توجيه المخاطَب إلى التَّفكير في الشَّيء غير المصرَّح به، ففي الحديث :" **لاَ يرْحَمُ اللهُ مَنْ لاَ يَرحَمِ النَّاسَ**".(18)

يتضمّن نص الحديث حكمًا مباشرًا ينبذُ الظَّلم، ولكن بالعودة إلى طبيعة الخطاب وبعده التّداولي نجد أنّ هذا الحكم المبسط يتضمّن قيمة أخلاقية تضمر وصية للمسلمين على اختلاف مشاربهم وأحوالهم مفادها الاتصاف بالرّحمة؛ لأن الله تعالى لا يرحم الظّالمين، ومثل هذه القيمة وغيرها تعكس البعد الإنساني في خطاب المصطفى عليه السّلام.

ومن هنا يمكن أن نصف القول المتضمَّن بالتَّأويل، وما على سياق الخطاب إلاَّ أن يبرز مضامين كلَّ إنتاج لغوي؛ ففي قول الرّسول صلى الله عليه وسلم :" **كلُّ أمتّي يدْخلُون الجنَّة إلاَّ مَن أبَى، قَالُوا: يا رسُولَ الله ومَن يأْبى؟ قالَ: مَن أطَاعَنِي دخَل الجنَّة، ومن عَصَانِي فقدْ أبَى**"(19).

يدرك القارئ الجيد أنّ أسلوب الاستثناء (كلُّ أمتّي يدْخلُون الجنة إلاَّ مَن أبَى) والتّضاد اللّغوي: (أطاعني =/= عصاني) في هذا السِّياق إنما وظِّفا ليؤكِّدا أنّه صلى الله عليه وسلم بعث ليكون رحمةً للعالمين، وأن هناك قولاً آخرا مضمرًا مفاده (اتبعوا سنتي الحميدة وسيروا على هداي)، وقد أبقى هذين الأسلوبين كلامَ الرسول (ص) منسجمًا مع جوهر الشَّريعة الإسلاميّة، ومعبّرا عن الإرادة في التَّغيير.

ولكي تحقِّق خطابات محمد صلى الله عليه وسلم فعاليتها ما على المتلقي إلاَّ إدراك مآل أقواله صلى الله عليه وسلم؛ ففي قوله " **إذا أُسنِد الأمْرُ إلى غيْرِ أهْلِهِ فانتَظرِ السَّاعةَ**". (20) يضمر القول إشارة إلى علّة مبيدة متلفة من علل الأمّة الإسلامية اجتماعيًا وهي قيام كيانها على جهاز تندس فيه بعض العناصر التي لا تصلح لأن تكون في الأساس،

كما يضمر هذا الحكم دعوى بضرورة مراعاة مبدأ الكفاءة في العمل ؛ لأن سوء اختيار الفرد المناسب يحدث نتائجًا سلبية في العمل المنوط به، وبتصاعد الأخطاء المرتكبة يعمّ الفساد .

وبتعدّد التّأويلات تتعدّد المفاهيم في الإنتاج الواحد، وهذا ما يجعل الخطاب النبوي يمتاز بمستويين: المستوى الظّاهري، والمستوى الباطني (التّأويلي)؛ فإذا كان الإنسان المسلم لا يستطيع أن يطّلع من عالم معارف النبي (ص) إلاّ على ما يرد على لسان هذا الأخير، فإن قسمًا من الضِّمنيات يبقى مجهولاً لدى المسلم المتلقي؛ وبالتّالي يبقى غير فعّال على تفكيره، خاصّة وأنّ الضِّمني يؤدّي إلى اجتناب الشّرح لغايات معيّنة تخصُّ المقام.

3-3- السِّياق ومراعاة الواقع: يعدّ السِّياق واحدًا من العناصر المساهمة في تكوين الخطاب، وكذا في فهمه وتأويل المقصد الّذي يحتويه، ومن مهام التّداولية الاهتمام "بكيفية توظيف المرسل للمستويّات اللُّغوية المختلفة في سياق معيّن، حتى يجعل إنجازه موائمًا لذلك السِّياق"(21) ، وذلك بربط إنجازه اللُّغوي بعناصر السِّياق الذي حدث فيه، ومنها ما هو مكوّن ذاتي مثل مقاصد المتكلم، ومعتقداته، وكذلك اهتماماته ورغباته، ومنها أيضا المكوّنات الموضوعية؛ أي الوقائع الخارجية مثل زمن القول، ومكانه وكذلك العلاقة بين طرفي الخطاب.

ونستخلص ممّا سبق أنّ السِّياق نوعان؛ **السِّياق اللّغوي** الذي "تمثّله بنية التّراكيب اللغوية بأصواتها وكلماتها، وجملها وعباراتها"(22)؛أي أنّه مجموع القرائن اللغوية التي يتضمنها الدّليل وتدخل في تكوين الكلمة وتشكيل دلالتها، **والسِّياق غير اللّغوي** هو"ما ينتظم القرائن المقامية الّتي تفسّر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء أكانت قرائن في الخِطاب ذاته، أو في المتكلم، أو في المخاطَب أو في المجتمع(23)": أي أنّه يعتمد على سائر الملابسات الّتي تحيط بالخِطاب.

ومن أنماط السِّياق اللّغوي في الخطاب النّبوي **نسج الفواصل الإيقاعية**، لما لها من دورٍ كبيرٍ في تثبيت المعاني من خلال اتساقها في ثنايا الخطاب؛ ففي معرض حديث محمد صلى الله عليه وسلم عن حرمات يوم النّحر بذي الحجّة: " **فإنّ دِمَاءكُمْ وأمْوَالكمْ وأعرَاضَكمْ بينكُمْ حَرامٌ كحُرمَةِ يومِكمْ هذا، في شَهرِكمْ هذا، في بَلدِكُم هذا، ليبلِغَ الشَّاهدُ الغَائبَ، فإنّ الشَّاهِد عسَى أنْ يبلّغَ من هو أوْعَى لهُ منْه...**" (24) نقف على توظيف مقاطع صوتية متناسقة رنانة تمثّل سجعا متوازيا قصيرا (25) (في يومِكُم هذا)، (في شهرِكُم هذا)، (في بلدِكُم هذا) على سبيل الحُكم والإرشاد؛ والهدف منه تحريك عاطفة المتلقي قبل مخاطبة عقله؛ وبالتّالي وضعه في جوّ التصوُّر، وجعله متأثّرا بما قيل.

ومن تأثيرات السِّياق اللُّغوي أيضا **اقتران البنية الصّرفية مع النّحوية**، كاستعمال جمع القلّة وجمع الكثرة مع اللّفظ الواحد في نحو " **إذَا أحسَن أحدُكُم إسْلامَه فكلُّ حَسنةٍ يعْملُها تكتَبُ له بعشرِ أمثَالِها إلى سَبعِمئةِ ضعفٍ، وكلُّ سَيّئةٍ يعملُها كتبَ لهُ بمِثلِها**" (26)

إذ الكلمة واحدة هي (مِثلُ) لكنّها أُستعملت تارةً جمع كثرة (أمثالِها)، وتارة أخرى جمع قلّة (بمثلِها)؛ والسّبب لأن الكلمة الأولى سيقت في مقام التّكثير والمضاعفة؛ فجيء بها مع (عشرِ) لبيان التّكثير، والثّانية جيء بها على القلّة، ولا مقتضى للتّكثير، ومنه نستنتج أنّ الزّيادة في الخطاب النّبوي خاصية تداوليّة، لأنها تمدُّ الأبنية الصّرفية بمعاني وظيفية جديدة..

ومن أنواع السِّياقات الخارجية (غير اللّغوية) التي تلوَّن خطابات الرسول صلى الله عليه وسلم **السَّيـاق الدِّيني** الّذي يتجلى من خلال قوله" **بنيَ الإسْلامُ عَلَى خمَسٍ: شهَادةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسُولَ اللهِ، وإقَامُ الصَّلاةِ وإيتَاءُ الزكَاةِ، والحجَّ، وصَوْمِ رمضانَ**"(27)

أكدَّ النبي (ص) بهذا التّقرير الأركان الخمسة للإسلام، ومثل هذه المعاني تبرز المرجعية الإسلامية للخطاب النّبوي ؛ مادامت معظم أقواله (ص) تعليق وتحليل لحِكم الدِّين ، ومن هنا كان النّبي (ص) "يتحوَّل بالنّظرة الاجتماعية المستخلصة من أرض الواقع، إلى حكم فقهي ومعيار شرعي وأخلاقي يدمجه في منظومة الضّوابط الروحية والشرعية التي يدرك أنّ لها وحدها القوة على الثَّبات والتوجيه، إذ لا سلطان إلاّ سلطان الروح"(28)، ويكشف هذا الأسلوب الرُّوحي عن مدى حضور السِّياق الدِّيني في أقوال الرسول (ص) .

ويتداخل **السِّياق التّربوي مع الاجتماعي** في نماذج المدوّنة، ويشمل الأخير عددًا كبيرًا من العوامل من بينها " العلاقات الاجتماعية بين المتحدِّث والمتلقي والتَّعامل الاجتماعي، ونوعية هذا التَّعامل، والمعرفة المشتركة بين المشتركين في الكلام(29)، لذا فإن السِّياق الاجتماعي متمم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللُّغة.

ومن تجليّات السِّياق التّربوي الاجتماعي في قوله الشّريف: "**المُسْلمُ أخُو المسْلمِ لا يظْلِمهُ ولاَ يُسلمُه، ومن كَانَ في حَاجةِ أخيهِ كان الله في حَاجَته، ومن فرَّجَ عنْ مُسْلمٍ كربةً فرَّج اللهُ عليه كربةً من كُرباتِ يوم القِيامةِ، ومن سَتر مُسْلمًا سَتره اللهُ يومَ القِيامةِ**"(30)

أُستعمل الربط التَّلازمي في هذه التَّراكيب؛ أين كان الجواب ملازمًا للشَّرط في كل مرة وانعدمت السَّببية، فبدى سياق الجمل الشَّرطية منطقيًا في هذا القول؛ لأن التّعليق بين:

(ومن كَانَ في حَاجةِ أخيهِ) ⟵ (كان الله في حَاجَته)

(ومن فرَّج عن مسلمٍ كربةً) ⟵ (فرَّج اللهُ عليه كربةً من كُرباتِ يوم القيامةِ)

(ومن ستر مسلمًا) ⟵ (ستره اللهُ يوم القِيامةِ)

تلازمي؛ والهدف من هذا الرَّبط إقناع المتلقي بأنَّ إعانة المسلم لأخيه أمرٌ جللٌ، ويعود على صاحبه بالنفع يوم القيامة.

وممَّا يعزِّز دور السِّياق الاجتماعي في تفسير الخطاب النّبوي الملازمة في قول "محمد صلى الله عليه وسلم" : "**كلُّ سُلامَى من النَّاسِ عَليهِ صَدَقةٌ كلَّ يومٍ تطلعُ عليه الشَّمْسُ، يعدِلُ بين النَّاسِ صدَقةٌ**".(31)

نلاحظ أنَّ الارتباط في هذا القول تلازمي أيضًا؛ ذلك أنَّ جواب الشّرط المقدَّم (كل سُلامَى من النَّاس عليهِ صَدَقةٌ كلَّ يومٍ تطلعُ عليه الشَّمْسُ) ملازم للشّرط (يعدِلُ بين النَّاسِ صدَقةٌ)، وهذا لأن الصدقة لا ينالها إلاّ من أصلح بين النّاس وتنعدم بانعدامه، وقد أضفى هذا النّوع من الرَّبط اللّغوي قوة إقناعيّة على القول، تدفع المسلم لتحصيل الصّدقات عن طريق العدل بين النّاس.

ومن خلال ما تقدَّم يتضِّح أنَّ الرَّبط اللُّغوي التَّلازمي ليس عمليَّةً بسيطةً بل هو أسلوب حجاجيٌّ مؤثرٌ بامتياز، لاسيما إذا كان مضمون الشَّرط ممّا يَقبل به المتلقي؛ فهذا الملمح التَّداولي يجعل المتلقي مشاركًا فعالاً في عمليّة البِّناء المنطقي لما يريده المخاطِب، وذلك حين يدرك جواب الشَّرط من الشّرط، وحينئذٍ يكون تحت سيطرته لكون هذا الأسلوب يبعث على الثِّقة من النَّاحية النّفسية.

3-4- النّفعية: إنّ الخطاب اللّغوي عند الرّسول صلى الله عليه وسلم عالم مرآوي تظهر فيه أحوال الأمّة وتتراءى فيه نفسيتها في شيء من التّلاحم والتّوافق ؛ ففي قوله صلى الله عليه وسلم عندما سُئِل عن أيّ الإسلامِ خيرٌ؟ **"من سَلِمَ المسْلمُونَ من لِسانِه ويدِه"** (32) و**"تطعِمُ الطَّعامَ وتقرأُ السَّلامَ علَى من عَرفتَ ومن لا تعْرِف"** (33)

يحاول الرّسول (ص) أن يرسي دعائم الأمّة الاسلاميّة الصّحيحة بأخلاقها الفاضلة وأسسها المتينة، وذلك بأن يقرّ أسباب الخير ويفشي المحبة والسّلام بين أفراد المجتمع الإسلامي الواحد من خلال أقواله التي تحثُّ في مجملها على مكارم الأخلاق كالتّناصح والمودة والتعاون والاحترام.

وعليه تعتبر أحاديث الرّسول صلى الله عليه وسلم من الذّخائر النّفيسة التي ترتبط ارتباطًا وثيقا بالإنسان وحقوقه كلّها وتشتمل عل شبكة علاقات الإنسان المهمّة في دنيا الإسلام فقد وضعت المناهج الحيّة لسلوك الإنسان، وتطور حياته، وبناء حضارته؛ وبالتّالي تقدِّم صورة كاملة عن البعد النّفعي في فن القول النّبوي من حيث تعدد جوانبها وتنوع مضامينها، وهذا التّنوع الغني الفكري أكسب هذه الرسائل موقعا متميزا في التراث الاسلامي.

3-5- الأنظمة التّوجيهية:

تشكِّل البُنى التَّوجيهية واحدة من أنظمة التَّداول، وترتبط بجانبٍ من جوانب التَّواصل التَّفاعلي الذي يتعلّق بوجود طرفين تتحدَّد العلاقة بينهما تبعًا لنوعية الخطاب المنتج، والَّذي يبنى غالبًا على ما يشير فعل التَّوجيه، ومن هنا يحدِّد "جون لانكشو أوستين John Lang Shaw Austin " "وظيفة اللُّغة بأنَّها ليست إيصال المعلومات والتَّعبير عن الأفكار فحسب، إنمَّا هي مؤسسة تتكفَّل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية".(34)

وبالعودة إلى صحيح البخاري نجد أنَّ الأفعال الدعويّة المتضمَّنة في عالم خطابات الرّسول صلى الله عليه وسلم هي أفعال توجيهية بالدَّرجة الأولى؛ لأن المحتوى في كلِّ خطاب ليس عبارة عن رسائل دلالية فحسب، وإنَّما ينمّ عن القصد الذي يتَّخذه صائغ الخطاب من خلال الدَّلالة.

وبما أنّ ونظرية أفعال اللُّغة قائمة على فرضية مفادها "أنَّ الكلام يقصد به تبادل المعلومات، والقِيام بفعل خاضع لقواعد مضبوطة في الوقت نفسه"(35)، سيتم عرض أمثلة عن أفعال اللُّغة من خلال بعض الأقوال النبوية المبثوثة في صحيح البخاري،وسيتمّ الاستعانة بتصنيف "جون سيرل John Searle" لأفعال اللّغة باعتباره قد جدَّد فيها بعد أستاذه "جون لونكشو أوستين "؛ حيث قسَّم الأفعال المتضمَّنة في القول إلى خمسة أقسام حسب المعنى المرجو منها؛ فهناك:

*__التَّقريريات__: وغرضها تقريري،

*__الوعديات__ Assertives: وغرضها وعدي، واتجاه مطابقتها من القول إلى الوعد.

*__الأمريَّات__ (الطّلبيات) Commissives: وغرضها أمري طلبي.

*__الإيقاعيات__ Directives: والغرض منها إحداث تغيير في العالم.

*__البوحيّات__ Déclaratives: والغرض منها التّعبير عن موقف حيال قضية. (36)

وعليه يمكن أن نصف وقائع التّواصل المعقّدة في نماذج الخطاب النّبوي حسب ما يثيره كلُّ فعل ناتج عن قول معيّن، وعلى هذا الأساس فإنّ الفعل اللُّغوي يعني التّصرف أوالعمل الاجتماعي الَّذي ينجزه الرسول صلى الله عليه وسلم باللُّغة.

وإذا بحثنا في المدوَّنة عن أمثلة من **التّقريريات** سنجدها في قوله صلى الله عليه وسلم "**إنمّا الأعمَالُ بالنّيّاتِ ولكلّ امرئٍ ما نَوى فَمَنْ كانتْ هِجرَتُه إلى دُنيَا يُصِيبها أو إلى امْرأةٍ ينكِحُها، فهِجرَته إلى ما هَاجرَ إليهِ**" (37) هذا الحديث أصلٌ عظيمٌ في الدّين، وموضوعه الإخلاص في العمل وبيان اشتراط النّية وأثر ذلك، وبه صدر البخاري كتابه الصحيح، وقد قدّمه الرّسول (ص) كتقريرٍ يؤكّد بموجبه أنّ كل إنسان يحاسبه الله تعالى بحسب نيته، فمن أراد خيرًا كان له، ومن أراد شرا كان له، ويستفاد من هذا الحديث أن كل عمل من الأعمال تصاحبه نيةٌ صالحةٌ يؤجر الفرد على فعله.

وكذلك في قوله (ص) " **سَبعةٌ يظِلهم اللهُ يومَ القِيامةِ في ظلّهِ يومَ لا ظِل إلا ظلهُ:إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ ذكر اللهَ في خلاءٍ ففاضَت عينَاه، ورجلٌ قلبهُ معلّقٌ في المسْجدِ، ورجُلاَن تحابَا في اللهِ، ورجلٌ دَعته امرأةٌ ذَات منصِب وجمَالٍ إلى نفْسِها فقَالَ إنيّ أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفَاها حتَّى لا تعلَم شمالُه ما قدَّمت يمينُه**".(38)

ذكر الرّسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن ما أعدّه الله سبحانه وتعالى لسبعة من عباده المؤمنين الّذين قد صفت عقيدتهم، وزكت نفوسهم، وقد راقبوا الله في سرّهم وعلانيتهم، ولذلك يوم القيامة هم في كنف الله حيث لا ناصر لهم ولا معين. ويحمل هذا القول دعوة منه صلى الله عليه وسلم لأن يكون المسلم واحدٌ من هؤلاء السَّبعة في مكانهم من التّقوى والصّلاح.

ومن أمثلة **الطّلبيات** الأمر وطلب الكَّف عن الفعل من خلال المضارع المقرون بـ (لا) النَّاهية، في "**يَسِرُوا ولا تعسِّرُوا ، وبشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا** "(39)

نجد الرّسول (ص) في هذا الحديث يأمر الدّعاة بأن ينظروا بحكمةٍ إلى كيفية تبليغ دعوة الإسلام الى النّاس بقوله: (يَسِرُوا ولا تعسِّرُوا) ؛ أي سهّلوا في جميع الأحوال، ولا تضيّقوا، وإلى الإخبار بالخير عكس التَّنفير في قوله (بشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا)، وقد صاغ الرّسول صلى الله عليه وسلم أمرًا بهذا الشَّأن لعلّتين؛ أوّلهما لأن التَّعسير يولّد النّفور والإدبار والشّكوك في كلام الدّاعي، والثّاني لكون الرّسول صلى الله عليه وسلم يحب اليُسر على النَّاس، فما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما مالم يكن محرَّما.

و نقف على النّفي في قوله صلى الله عليه وسلم " **لاَ يؤمِن أحَدُكُم حتَّى يحبَّ لأخِيهِ مَا يحبُّ لنَفسِهِ**"(40) ورد في هذا القول فعل مجزوم بلا النَّاهية (لايؤمن) لنهيّ المسلمين عن سلوكيات تجرّد عنهم صفة الإيمان كحبُّ الذّات، والحسد، ومن ثمّ نصحهم بضرورة الاستهداء واستبدالها بالإيثار وتمني الخير للآخرين، بل والسّعي الدّائم لمؤازرة الآخرين في شتى المواقف ماديًا ومعنويًا، وتفريج الكرب عنهم، حتّى تعمّ الأخوة بين المسلمين.

ومن **الإيقاعيات** فعل الدّعاء؛ "إذ يلجأ الإنســـان في ســـــاعة العسر إلى الله، ولهذا كان الدُّعاء في الإسلام مخ العبادة "(41)، وقد دلَّ هذا الفعل على العودة إلى الله تعالى حين قال النّبي (ص) : " **يَدخُلُ الجنَّة من أمَّتي زُمرةٌ هم سبعُون ألفًا تُضِيء وجوهُهم إضاءةَ الْقمرِ ليلةَ البَدرِ، وقال أبو هريرة " فقام عُكاشَة بن مِحصن الأسَديُّ يرفع**

نمرةً عليه فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أُدعُ اللهَ أنْ يجعَلَني منهم، فقال اللَّهم اجعلهُ مِنهُم، ثمّ قامَ رجلٌ من الأنصارِ فقالَ يا رسولَ اللهِ، أُدعُ اللهَ أن يجعلني منهُم فقال سبقَكَ بها عُكاشةُ".(42)

فالنّبي الكريم وبعبارة (اللَّهم اجْعلهُ مِنهُم) يدعو الله عزّوجل أن يوفِّق جليسه "عُكاشة بن مِحصن الأسديُّ" في أن يكون من الزّمرة المضيئة وجوهُهم يوم دخول الجنة، وهذا دليلٌ على سمة الخطابية المباشرة في كلام الرّسول (ص)، ومنزلة دعاءه عند الله تعالى.

ونجد القسم في قول الرّسول (ص) " **وإنّي واللهِ وإن شاء اللهُ لاَ أحْلفُ عَلى يمَينٍ فأرَى غيرهَا خيرًا مِنها إلا كفَّرتُ عن يميني وأتيتُ الَّذي هو خيرٌ وكفَّرتُ**"(43) بعدما أمر بثلاثة ذودٍ لأبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين عندما استحملوه، وكان الرسول (ص) قد أقسم قبل ذلك بأن لا يحمّلهم، ويلاحظ المتأمل لهذا الأثر أنّ الرّسول (ص)اتّخذ موقف التّحدي والثبات تجاه التّكفير عن اليمين في حال رؤية غيرها خيرا، لدرجة أن أقسم على ذلك، فأتى بقولٍ يجري مجرى القسم وهو (وإني والله)، وذلك من باب الاستثناء في الإيمان.

ومن أمثلة **البوحيات** المواساة، ويتجلّى هذا السُّلوك الاجتماعي النّبيل في معرض حديث الرسول (ص) عن (فضل من شهد بدرا) حين أُصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمّه إلى النّبي (ص) تشكو فراقه؛ فقالت " **يا رسُولَ اللهِ قد عرِفتَ منزلةَ حارثةَ مني، فإن يَكنْ في الجنَةِ اصبِر واحتسِب، وإن تكنِ الأُخرى تَر ما أصْنع؟، فقال ويحك – أو هبِلت- أو جنَّة واحدةٌ هي؟ إنهَّا جِنانٌ كثيرةٌ، وإنَّه في جنَّة الفِردَوس**".(44)

جعل النّبي (ص) لفظة (الجنّة) الكلمة المحوريّة في خطابه، فجاءت مفردة مع (واحدةٌ) و(الفردوسِ)، وجمع تكسير مع (كثيرةٌ)، ولعلَّ هذا التّنوع في استخدام البِنية المعجمية بين الصِّيغ المفردة والمركَّبة كان لمواساة الأمّ وإقناعها بالصّبر.

ومن البوحيات كذلك تضمين الخطاب أساليبًا تدلُّ على الذَّم، بعضها يؤدِّي هذه الدَّلالة أداءً صريحًا، لأنَّه وُضع من أول الأمر ليدلَّ عليها، وبعضها لا يؤديها إلاَّ بقرينة واضحة، ومن النماذج التي دلَّت على الذَّم بقرينةٍ قوله(ص): " **إنَّ اللهَ حرَّمَ عليْكُمْ عقوقَ الأمهَاتِ، ووأْدَ البَناتِ، ومنعَ وهات، وكرِهَ لكُم قِيلَ وقالَ، وكثْرة السُّؤالِ، وإضَاعةَ المالِ**".(46) عبَّر المخاطِب الكريم بالمحمول الدّلالي (إنَّ اللهَ حرَّمَ عليكُم) عن مدى استيائه وذمّه للأفعال المشينة الّتي يقوم بها الكُفار والمنافقون عمومًا؛ كعقوق الوالدين ووأْدِ البنات والغيبة وتتبّع عورات المسلمين وتبذير المال، طارحًا بذلك حُكمًا يقضي بذمّ وتحريم هذه التّصرفات عند الله تعالى.

ومن **الوعديات** التّنفيذ والقرار في قول الرسول صلى الله عليه وسلم" **من توكَّل لِي مَا بين رِجليهِ ومَا بين لحِييهِ توكَّلت له بالجنَّةِ**" (46)؛ حيث ارتبطت الجنة في هذا القول بمدى إتباع ما جاء في مضمون القول أو عدمه، لذا كانت (من) أداةً لعرض جزاء من اتصف بالعفّة ونبذ الفواحش، حسب ما وعد به الرّسول (ص) المتلقين بغيّة إثبات فضل ترك الفواحش.

ونستحضر فعلا الوعد والوعيد في رسالته صلى الله عليه وسلم لهرقل ملك الرّوم:" **مِن محمد عبدِ اللهِ ورسولهِ إلى هِرقلَ عظيمِ الرُّوم، سَلامٌ على من اتَّبعَ الهُدى، أمّا بعْدُ فإنِّي أدعُوكَ بدِعايةِ الإسْلامِ،أسلِمْ تسلَمْ يؤتِكَ الله أجركَ مرَّتين، فإن تولَّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيين**".(47) تتضمّن الرّسالة وعدًا بالسّلامة وإحراز الأجرِ المضاعفِ بمجرّد أن يشهر "هرقل" ومن تبعه من الأريسيين إسلامهم، ووعيدًا بالإثم في حال التّعنت والرّفض.

3-6-الأنظمة الحِجاجية والبعد الإقناعي:

إنّ "اللّغة هي المجال الّذي تنكشف فيه قصدية التّواصل بأعلى مظاهرها، وما دامت الحجَّة لا تفارق اللّغة فإنّها تنطوي على مظاهر القصدية"(48) ، ومن ثمّ فإنّ كل سلوكيّات الإنسان اللّغوية في الواقع هي نشاط حِجاجي يمارسه ليؤثر في الآخرين.

ولا يخلو الخِطاب النّبوي بعدِّه نصًا لغويا من هذا البُعد الحِجاجي، إن لم يكن يقوم عليه أساسًا؛ لأنه فنٌ يعتمد ضروبًا من الصِّناعة البلاغية للتَّعبير عن آراء الرّسول (ص) من جهة، ويجنح للتَّأثير في المتلقي من جهةٍ ثانية، وهذا ما يؤكِّد حاجة هذا النَّوع من الخطاب إلى صيغ حجاج لفظية وتركيبية وأخرى عقلية (منطقية).

وتستهدف أساليب **الحِجاج اللَّفظية والتَّركيبية** التَّأثير من خلال إثارة الحاجات النَّفسية والاجتماعية، ومخاطَبة الأحاسيس، بما يحقِّق أهداف القائم بالاتصال، ومن أمثلتها في نماذج الخطاب النّبوي الاستشهاد بالقرآن الكريم نظرًا لكونه "يبني سياق فعله الخاص في فضاء ذي مرجعيات وسنن، يحاور الأنساق المعرفية، ويجادل التعاليم المتوارثة عن الأجداد"(49)، ما جعله أعلى سلطة دينية لا يمكن بأي شكلٍ من الأشكال الاعتراضُ عليها؛ فهو حجّة لنصٍ من خارج النّص، ووجه حجّته إعجازه.

ومن أمثلة الاستشهاد بالآيات القرآنيّة من قِبل الرّسول صلى الله عليه وسلم: "**إن اللهَ خَلقَ الخَلقَ، حتَّى إذَا فرَغَ من خَلقِه قَالتِ الرَّحمُ هذا مقَامُ العائذِ بك من القَطيعَةِ، قال نعم أما ترضين أنْ أصِلَ من وصَلكِ وأقْطَعَ من قَطعَك، قالت بلاَ يا رب، قال فهو لكِ، قال الرّسول صلى الله عليه وسلم اقرءُوا إن شِئتُم (فهَلْ عَسَيتُمْ إنْ تولَّيتُم أن تفسِدُوا في الأرْضِ وتقَطِّعوا أرْحَامَكُم)** " (50).

أُستحضرت الآية 22 من سورة (محمد) بهدف إقناع المتلقين بفضل صلةِ الرّحم وجزاء من يقطعها، كما جاء توظيفه القرآني في سياق حثِّ النّاس على التَّوبة من الفساد؛ لأنَّ الآية القرآنيَّة تحمل دعوةً صريحةً من الله عزَّوجل لنبذ كلِّ فاسدٍ؛ وبالتَّالي كانت برهانًا قيِّمًا على محاربة الفَّسوق الحاصل من الكفار والمنافقين.

ومن التراكيب **الحِجاجية** اعتماد الرَّبط التَّعليلي (التَّفسيري)، وهو ارتباط بنيتين نصيتيَّن متتاليتيَّن للوصول إلى حكمٍ ما، ومن شواهده في المدوّنة " **ثلاثةٌ مَن كنَّ فيهِ عرَفَ حَلاوةَ الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه ممّا سِواهُما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبُّه إلاَّ لله، ومن يكْرَهُ أن يعودَ للكُفرِ بعد إذْ أنْ أنقذَه اللهُ كَما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ**" .(51)

إنَّ الارتباط بين الشَّرط والجواب في هذا القول تعليلي؛ ذلك أنَّ عبارة (ثلاثة من كنَّ فيه عرفَ حلاوة الإيمان) تفسِّر وتبرِّر الجمل (مَنْ كان اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سِواهُما)، و(من أحبَّ عبدًا لا يحبُّه إلاَّ لله)، و(من يكْرَهُ أن يعودَ للكُفر بعد إذْ أنْ أنقذَه اللهُ كَما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ)، وقد أخذ الارتباط التَّعليلي في الملفوظ دلالة عاضد الشَّرط؛ حيث نلاحظ أنَّ الارتباط لا يتمُّ بجملة (مَنْ كان اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه) فحسب، بل بعاضد آخر هو عبارة (مما سِواهُما)، والتِّي تعود على (عامة الناس)، فلا يتعلَّق الجواب إلاَّ بهذه العبارة، والمخطَّط الآتي يبيِّن وظيفة العاضد في تحقيق الارتباط السَّببي بين الشَّرط و الجواب:

مصاحبة الارتباط بعاضد الشّرط

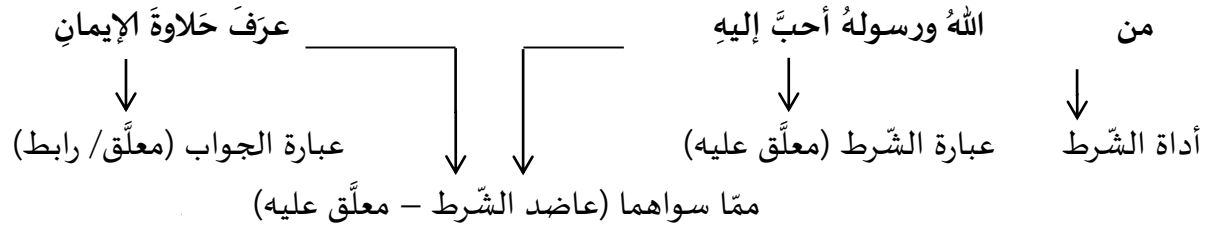

وكذلك هو الشّأن بالنسبة لبقيّة أجوبة الشّرط؛ فمحور الارتباط في التراكيب الأخرى (لا يحبُّه إلاَّ لله) و (بعد إذْ أنْ أنقذَه اللهُ) و(يكرَهُ أن يُلقى في النَّار)، وهو ما تنعقد عليه دلالة الشَّرط، وهو الَّذي يقوّي به الرسول صلى الله عليه وسلم معنى الشَّرط، وبالعودة إلى سياق الخطاب يضمر هذا التّعبير التّفسيري حجَّة أن المسلم لن يكون من أهل التّفاضل في الإيمان إلا إذا إتّصف بأعمال تستدعي من صاحبها الإيمان المطلق بالله تعالى، وإثبات إخلاص النّيّة في العمل.

وليتحقَّق الانسجام في الخطاب قد "يعمد الخطيب إلى المنطق وأقيسته اليقينية إذا كان يخاطب أقوامًا قد غلب على حياتهم الفكر والعقل، وقد يعمد إلى الظّنيات وأقوال من عرفوا بالحكمة، إذا كان من يخاطبهم ممن يقدسون الّذين ينقل عنهم..." (52): أي أنّ المخاطِب يلجأُ الى توظيف أساليب الإقناع المتوارية لكي يدفع المتلقي إلى استنتاج الضّمنيات بنفسه، ومن ثمّ يعمد الى اتخاذ القرار من تلقاء نفسه، ممّا يشعره بالرّضا والرّاحة النّفسية.

وقد وظَّف الرّسول **صلى الله عليه وسلم الأقيسة المنطقية** "التي أُضمرت بعض مقدِّماتها، أو ما يعرف بالقياس المضمر"(53) ، وذلك لأنَّ الضَّمائر إنمَّا تصير مقنعة بأن يبقى فيها موضع عنادٍ، ومتى يكون فيها هذا الموضع خرجت عن الحدِّ المقنع، ورتبته إلى رتبة اليَّقين وحده،ومن نماذجه ما ورد في قوله (ص) " **أُريتُ النَّارَ، فإذَا أكثَر أهلِهَا النِّساءُ يكْفُرْنَ، قِيل أيكْفُرْنَ باللهِ؟، يكْفُرْنَ العشيرَ، و يكْفُرْنَ الإحْسَانَ، لو أحسَنْتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر ثمّ رأتْ منك شيئًا قالت مَا رأيتُ مِنك خيرًا قطُّ** " (54): حيث ورد القياس المضمر كالتَّالي:

- المقدِّمة الكبرى (مذكورة): أُريتُ النَّارَ، فإذَا أكثَر أهلِها النِّساءُ يكْفُرْنَ.
- المقدِّمة الصُّغرى (مذكورة): يكْفُرْنَ العشير، و يكْفُرْنَ الإحسَانَ، لو أحسنْتَ الى إحداهنَّ الدَّهر ثم رأتْ منك شيئًا قالت ما رأيتُ منك خيرًا قطُّ.
- النتيجة:(محذوفة): كُفران العشير من المحرمات التي تزجّ بصاحبها إلى النّار.

وقد قصد النّبي (ص) حذف النَّتيجة، حتى يؤكِّد للنِّساء حتميَّة دخولهن النّار بارتكابهن معصية كُفران العشير المتسببة في عِقابهن المشئوم، وقد ساعده الإضمار هنا على التّعجيل بالمضرَّة، وضمان سرعة اقتناع النِّساء بوجوب تجنّب الأمر.

ومما تقدّم نستنتج حضور الوظيفة الحِجاجيّة في الحديث النّبوي الشّريف، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يسعى دومًا إلى البرهنة على صحَّة رسالته، مستعملاً آيات القرآن والربط التعليلي والمقايسة المنطقية وغيرها من الاساليب الحِجاجية للتَّأثير في المتلقي.

4- خاتمة:

إنّ استقراء الأنظمة التّواصلية في الخطاب النّبوي تحتاج إلى قراءة متأنيّة ، ونظرًا لأهمية هذا المجال تناول هذا البحث الاستراتيجيات التّواصلية في أحاديث الرّسول (ص) ؛ باعتبارها خطابات تتفاعل مع العقول والقلوب،

ومن هنا جاءت فكرة الغوص في هذا الموضوع الذي يعدّ إضافةً لدراسة وظائفية الخطاب اللّغوي من الجانب التّداولي الحِجاجي.

و من النتائج التي أفضى إليها هذا البحث أنّ الخطاب النّبوي يبنى على استراتيجيات مهمّة منها ماهو تأثيري توجيهي ، ومنها ماهو نفعي حِجاجي، و يتجاوب مع التّداولية فيما يتعلّق بالتّأثير ومحاولة الوصول إلى الأغراض الإنجازية التي حواها الخطاب ا عن طريق الرّموز والإيحاءات والأقوال المضمرة....

- تتعدّى لغة الرّسول صلى الله عليه وسلم كونها مجرّد أداة تبليغ، بل هي وسيلة عمل وتأثير، وهذا ما تجلّى من خلال أحاديثه الشّريفة التي أحدثت تغييرات في العقيدة والسلوكات، وعليه تكون العلاقة بين السِّياق والخطاب النّبوي علاقة تكامل بالنّظر إلى هذه النُّصوص الشَّريفة التي تعبّر في أصل وضعها عن مبادئ الدَّعوة الإسلامية ثمّ تجاوزت ذلك إلى إصلاح الأمّة.

-أنَّ التَّأويل خاصيّة تداولية تخضع لها أحاديث الرّسول (ص)، وتعتمد على المتلقي الّذي يعيد قراءة الحديث في ضوء سياقات متعدِّدة؛ كما يعدّ الخطاب النّبوي خطابًا ناجحًا لأنّه يوظف حُججا منطقية بعيدًا عن الحدَّة والتَّجريح، ولهذا اختار الرّسول صلى الله عليه وسلم المواجهة الثّقافية الّتي تعتبر جزءًا من الرِّسالة السَّماوية.

وفي الأخير ينبغي أن يقبل الدّارسون على الحديث النّبوي الشّريف دراسةً وتدبيرًا بما يتناسب مع العصر الّذي تقدّمت فيه المناهج وظهرت فيه علوم جديدة، فالحديث النّبوي ميدان خصبٌ للدِّراسات اللّغوية المتنوعة، وتحليله وفق هذه المناهج الحديثة يعطي إمكانيات أكبر للكشف عن البعد التّواصلي في السّنة النّبوية الشريفة.

5- هوامش البحث:

(1)- القرآن الكريم، سورة النجم ، الآية 3

(2)- الأنصاري عمر بن أحمد ، (دت)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: خالد الرباط وفتحي جمعة، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية قطر، ج1 ، ص17

(3)- أبو زيد نواري مسعود ، 2009م ، في تداولية الخطاب الأدبي ، المبادئ والإجراء، بيت الحكمة، الجزائر، ط1 ، ، ص30

(4)_ الخطاب لغةً: ورد في لسان العرب بمعنى مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابًا، وهما يتخاطبان، ومنه الخطبة: اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب، وهي عند العرب الكلام المنثور المسجع. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، 1414ه ،لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط3، ، المجلد الأول، ص366.

كما تضفي المعاجم العربية الحديثة لدّلالة الخطاب اللّغوية " الحُكم بالبيّنة، أو اليَمين". مجمع اللغة العربية، 2004 م ،المعجم الوسيط، (مادة خطب)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، ، ص 243.

(5)_الآمدي (علي بن محمد)، 1980م، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، ص136

(6)_ الجرجاني (أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد)، 1991م ، أسرار البلاغة، تعليق: محمد محمود شاكر، دار المدني،جدة ،(د ط)، ، ص45

(7)_ المتوكل أحمد ، 2010 م ، الخطاب و خصائص اللغة العربية؛ دراسة في الوظيفة و البنية والنمط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ، ص24

(8)_ ولد أباه السيد، 2004م ، التاريخ و الحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط2، ، ص 110.

(9)- عمر بن أحمد الأنصاري التوضيح لشرح الجامع الصحيح، مرجع سابق، ص17

(10)- بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية، مقاربة بين التداولية و الشعر، مرجع سابق ، ص09 وللاستزادة ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية؛ مرجع سابق، ص24

(11)- بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية ، مرجع سابق ، ص18

(12)- البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ،2002م، صحيح البخاري، طبعة مضبوطة ومصححة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، ، ص1060

(13)- المصدر نفسه، ص14

(14)-. المصدر نفسه، ص16

(15) المصدر نفسه، ص22

(16)- المسدي عبد السلام ، السياسة وسلطة اللغة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2007م، ص53

(17) عبد الرحمن أحمد ،1985م، العلاقة بين اللغة والفكر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ، ص 59.

(18) - البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص1821

(19) - المصدر نفسه، ص1897

(20) - المصدر نفسه، ص1615

(21)- أبو زيد نواري مسعود ، (دت)، في تداولية الخطاب الأدبي ، المبادئ و الإجراء ، بيت الحكمة ، الجزائر، ط1 ،ص 20

(22)_ حيدر فريد عوض ، 2005م،فصول في علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، ص119.

(23)_ كريم الزنكي نجم الدين قادر ، 2006، نظرية السياق، دراسة أصولية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ، بيروت،ط1، ص63

(24)- البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص29

(25)_ مرابط، زهية التسجيع المتطابق ،2006 م ، الإجراء والائتلاف والجمال، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 101 ، كانون الثاني،.ص102

(26)- البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص20

(27)- المصدر نفسه، ص12

(28)- ينظر: عشراتي سليمان، 2010 م، ابن باديس، التحول من برزخية القول إلى حضور الفعل، ملامسة لفقه سياسة الإصلاح وإصلاح السياسة، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر،(د ط) ، ج2 ، ص40.

(29)- محمد العامري خليف خلف: 2010م، السياق أنماطه و تطبيقاته في التعبير القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 9، العدد 2، ص50 .

(30) – البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص591

(31)- المصدر نفسه، ص646

(32)- المصدر نفسه، ص13

(33)- المصدر نفسه، ص14

(34)- ينظر: سويرتي محمد ، 2000م، اللغة ودلالاتها، تقريب دلالي للمصطلح التداولي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 28 ، العدد3، ص 35.

(35)- ينظر: بوجادي خليفة ، في اللسانيات التداولية، مرجع سابق، ص18 وما بعدها. ينظر:محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة ، القاهرة، (دط)، 2002، ص7

(36) – الطبطائي طالب سيد هاشم، 1994م، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، (د ط) ، ص30-32.

(37) – البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص7

(38)- المصدر نفسه، ص1683

(39)- المصدر نفسه، ص30

(40)- المصدر نفسه ، ص13

(41)- بليق عز الدين بليق، 1984م ، مناهج الصالحين من أحاديث و سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، دار الفتح للطباعة و النشر، بيروت، ط3، ص888

(42)- البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص1625

(43)- المصدر نفسه، ص1663

(44)- المصدر نفسه، ص977

(45)- المصدر نفسه ، ص579

(46)- المصدر نفسه، ص 1648

(47)- المصدر نفسه، ص 11

(48)- عبد الرحمن طه ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص259

(49)- الشعبان علي،2010م، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا ، ط1،،2010،ص54

(50)- أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص1504

(51)- المصدر نفسه، ص15

(52)- محمد أبو زهرة، (دت)، الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ، ص125.

(53) – العمري محمد 2002م،، في بلاغة الخطاب اللإقناعي، افريقيا الشرق، بيروت، ط2، ص81-82

(54)- البخاري أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، مصدر سابق، ص17

6. قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم، .رواية حفص عن نافع، مجمع البحوث الإسلامية، دار الهيثم،2004 م.

أولا : المؤلفات المصادر

- البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ،2002 م، صحيح البخاري، طبعة مضبوطة ومصححة، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.

ثانيا: المؤلفات المراجع

1- مجمع اللغة العربية، 2004 م، المعجم الوسيط، (مادة خطب)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4.
2- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، 1414ه ، لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط3، ، المجلد الأول.
3- الآمدي (علي بن محمد)،1980م، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط).
4- أبو زهرة محمد ،(د ت)، الخطابة، أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة.
5- أبو زيد، نواري مسعود، 2009م، في تداولية الخطاب الأدبي ، المبادئ و الإجراء، بيت الحكمة، الجزائر، ط1 .

6- الأنصاري عمر بن علي، (دت)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: خالد الرباط وفتحي جمعة، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، قطر، ج1 .
7- بليق عز الدين، 1984م، مناهج الصالحين من أحاديث و سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، دار الفتح للطباعة و النشر، بيروت، ط3.
8- بوجادي خليفة،2012م، في اللسانيات التداولية، مقاربة بين التداولية والشعر مع محاولة تاصيلية في التراث العربي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1.
9- حيدر فريد عوض، 2005م، فصول في علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1.
10- الزنكي نجم الدين قادر كريم،2006م، نظرية السياق، دراسة أصولية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ، بيروت،ط 1.
11- الشعبان علي، 2010م، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا ، ط1.
12- عبد الرحمن أحمد ،1985م، العلاقة بين اللغة والفكر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
13- عبد الرحمن طه ،2000م، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2.
14- عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد)، 1991 م، أسرار البلاغة، تعليق: محمد محمود شاكر، دار المدني،جدة ،(د ط).
15- عشراتي سليمان، ابن باديس، 2010م، التحول من برزخية القول إلى حضور الفعل، ملامسة لفقه سياسة الإصلاح وإصلاح السياسة، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر،(د ط) ، ج2 .
16- العمري محمد ، 2002م، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، بيروت، ط2.
17- المتوكل أحمد المتوكل،2010م، الخطاب وخصائص اللغة العربية؛ دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.
18- المسدي عبد السلام ، 2007 م، السياسة وسلطة اللغة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1.
19- الطبطائي طالب سيد هاشم، 1994 م، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، (د ط).
20- نحلة محمود أحمد ،2002م، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة ، القاهرة، (دط).
21- ولد أباه السيد ، التاريخ و الحقيقة لدى ميشيل فوكو، الدار العربية للعلـوم، بيروت، ط2، 2004م .

ثالثا: المجلات:

1- خليف خلف محمد العامري: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، (2010 م) ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 9، العدد
2- سويرتي محمد،(2000 م)، اللغة ودلالاتها، تقريب دلالي للمصطلح التداولي، ، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 28 ، العدد3.
3- مرابط زهية (2006 م)، التسجيع المتطابق ،الإجراء والائتلاف والجمال،، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 101 ، كانون الثاني.